المحاضرة الثالثة: التعليمية عند القدماء الجاحظ ابن خلدون

محاور المحاضرة:

أولا/ التعليمية عند الجاحظ:

ثانيا/ التعليمية عن ابن خلدون:

تقديم المحاضرة

أولا: التعليمية من منظور الجاحظ

1/ طرائق التعليم عند الجاحظ:

أ/ مجالس التعليم: أبان الجاحظ عن هذه الطريقة بقوله: " قيل لبعض العلماء: أي الأمور أمتع؟ فقال: مجالس الحكماء ومذاكرة العلماء"[1]، وقال أيضا في فصل آخر من كتابه البيان والتبيين: " من صادق الكتاب أغنوه، ومن عاداهم أفقروه"[2]، فهو يرى أن مجالسة الحكماء والمداومة على مجالسهم مكس عظيم للمتعلم الشغوف الناجح، المجتهد المنضبط، ذاك المتعلم الذي لا سقف لطموحه، وأهدافه، متعلم يتصيد العلم، ويحسن انتقاء مصادره.

ب/ المناظرة: ونستحضر ملامح هذه الطريقة، بتقديم قول له هذا نصه: " قال الخليل بن أحمد" اجعل تعلمك دراسة لعلمك، واجعل مناظرة المتعلم تنبيها على ما ليس لديك"، فمر هذا القول أن نجعل من الآخر فرصة للتعلم والوقوف على ما نجهله، ناهيك عن استثمار معارفنا الحالية في بناء تعلمات أو خبرات مستقبلية جديدة.

د/ المذاكرة والتكرار: يتمثل هذا المبدأ أو الطريقة في قوله" قالوا علم علمك، وتعلم علم غيرك، فإذا أنت قد علمت ما جهلت، وحفظت ما علمت"، فهو بهذا التصريح يبرز قيمة المذاكرة

[1] البيان والتبيين ، الجاحظ، ج2 ص: 107.
[2] المصدر نفسه، ج1، ص: 287.

والتكرار التي تكون أساس لتثبيت المعارف السابقة، وترسيخها، إذا لا ينبغي أن تبقى المعارف المكتسبة رهينة صاحبها، بل عليه ان يجعها منارة لغيره.

2/ موقفه من المعلم: لقد أبان الجاحظ بأنّ سلوك المعلم أمام تلاميذته يكون له الأثر البالغ على تمثلاتهم المعرفية والتواصلية، بحكم إنه يشكل قدوة لهم وأسوة حسنة، فالمعلمون يحتلون موقفا ذا أهمية كبيرة من سلوك المتعلمين وهذا من خلال خلق عادات سليمة تسهم في البناء الأمثل والكامل لشخصيتهم، وإنّ هذا التمثل الجيد يبقى رهين التحقق الفعلي لأقوال المعلمين، حيث إنه مطالب بالتقيد بكل ما يقول، فإن رأى المتعلمون من معلمهم عكس ما كان يُحدثهم به فإنّ موقفهم منه سيكون سلبا، ولن يعود كما كان عندهم قدوة ومثلا أعلى، وإنّك لتجد الماوردي يشير إلى ذلك بقوله" على العالم أن لا يقول مالا يفعل، ثم يتجنب أن يقول مالا يفعل ، وأن يأمر بما لا يأتمر، وأن يُسر غير ما يُظهر"[3].

وقد ركز الجاحظ كثيرا على المتكلم (المعلم) بصفته ناطقا، ومنتجا للكلام، وذلك بأن جعل فيها خصائص عدة منها[4]:

الخصائص النفسية: وتتمثل في رباطة جأشه، وصدقه وإخلاصه.

الخصائص العلمية والمعرفية: المعرفية منها تتمثل في درايته بالنصوص المهمة في صورة القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والكلام العربي شعرا أكان ام نثرا.

الخصائص الاجتماعية: اللغة عند الجاحظ قضاء للحاجات الإنسانية، وشرط من شروط التبليغ والتواصل، وآلة لكشف الستر عن المعنى دون الضمير.

الخصائص اللغوية: وتتمثل في تلك الصفات الأسلوبية، والحجاجية الاستدلالية، وهذا لجلي في كتبه مثل: الرسائل، والحيوان، والبيان والتبيين. وهي ضرورة ملحة ينبغي على المعلم

---

[3] الأسس النفسية لآراء الماوردي التربوية، ص : 70.

[4] ينظر: المفاهيم اللسانية والتعليمية عند الجاحظ وابن عربي – قراءة في الأسس والمبادئ– ، جمعة النعامي، إسماعيل سيبوكر، مجلة الممارسات اللغوية، ع2، مج11، جوان 2020، ص: 257، 258.

امتلاكها في كلامه، بغية تحقق فعل التأثير الإيجابي في المتعلم، وهو مصطلح يشع اليوم بعبارة البرمجة العصبية اللغوية

ب/ موقفه من المتعلم: المتعلم عند الجاحظ يتسم بالنظرة التربوية العميقة التي تجمع بين ثلاثية العقل، والأدب، والتجربة، لأن العلم من منظوره ليس تلقينا فحسب بل فهم وتهذيب وتلقي حسن، حيث يدعوه إلى رفع كفاءته اللغوية، وتحسين مهاراته السمعية والحسية، والحركية والبصرية، من خلال اعمال فكره والتدبر الحسن. ولنا أن نجمل موقفه في النقاط التالية:

- **المتعلم بين الحفظ والفهم:** حيث دعا المتعلم إلى عدم التركيز على الحفظ لوحده دون الفهم ففي هذا الاقتصار عزل لتلك المهارات الكائنة على مستوى العقل البشري.
- **المتعلم متأدب قبل ان يكون عالما:** في هذا المبدأ تأكيد على حتمية التقيد بالأخلاق الحسنة، إذ ينبغي على المتعلم أن يكون متأدبا، ومتواضعا، لأنه لا قيمة لعلم دون اخلاق، فالأخلاق ترفع صاحبها.
- **المتعلم صبور في طلبه:** هذا المبدأ فيه تأكيد على طلب العلم بالتدريج، فالتعلم عملية تراكمية، تحتاج إلى صبر ومثابرة، لذا لا ينبغي أن يستعجل المتعلم في طلبه.
- **المتعلم يتعلم، وينقد:** إنّ المعارف التي يكتسبها المتعلم تمكنه من إعمال عقله فيها، من خلال التدبر الجيد، وهذا كان يقوم بالموازنة بين الآراء والمواقف، فهو متعلم له عقل عليه إعماله في هكذا المواقف، إذ يحق له ان ينقد، وينصح، ويضيف.

ثانيا: التعليمية عند ابن حلدون

1/ الملكة اللغوية: يرى ابن خلدون أنّ اللغات جميعها ملكات شبيهة بالصناعة، أي أنّ اللغة تُتعلم كما تُتعلم صناعة ما، والملكة عنده هي مهارة ثابتة تكتسب عن طريق التعلم، سواء تعلق الأمر باللغة أو بغيرها من الصنائع، وقد عرّفها بأنها صفة راسخة يكتسبها الإنسان عن طريق التعلم، وتَحْدُث هذه الملكة عن طريق التكرار والممارسة، قال ابن خلدون يشرح معنى الملكة: «والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة، ثم تتكرر

فتكون حالاً، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة».

وكانت ملكة اللغة العربية تكتسب طبيعياً بالسماع حين كان المتكلم ينشأ في وسط لغوي كله عربية فصحى، فلا يحتاج إلى أن يتعلمها على يد معلم، وبهذا فسّر القول الشائع بأن اللغة العربية طبع في العرب. لكن هذه الملكة فسدت بسبب اختلاط العرب بالعجم، لذلك لم يعد السماع وسيلة كافية لتعلم اللغة الفصحى، فما طرق اكتساب ملكة اللغة العربية؟

2/ طرائق اكتساب الملكة اللغوية:

أ/ كثرة الحفظ وجودة المحفوظ:

طريقة اكتساب العربية عند ابن خلدون هي حفظ كلام العرب القديم، وجَعَلَ القرآن الكريم والحديث الشريف من أوّل ما ينبغي أن يحفظ ابتغاء هذه الملكة، ثم يأتي بعد ذلك كلام السلف عامة، ثم كلام فحول العرب، قال ابن خلدون: «ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث، وكلام السلف، ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم... حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم... منزلة من نشأ بينهم»

هكذا؛ فابن خلدون يرى أن حفظ كلام العرب الفصيح طريقة فعّالة في اكتساب ملكة اللغة العربية، ذلك أن مَنْ حفظ كلام العرب الفصيح كَمَنْ عاش بينهم، فسمع منهم، والملكة التي تنشأ عن حفظ الكلام الفصيح هي نفسها التي تنشأ عن سماع الكلام الفصيح، فإذا كانت

وسيلة السماع الطبيعية غير متاحة في الوسط اللغوي بعد فساد اللسان العربي بالعُجْمَة، فإنّ ابن خلدون يحثّ على خلق سماع اصطناعي.

ولنوعية المحفوظ وكميته أثر في امتلاك اللغة، إذ كلما كان المحفوظ جيداً كثيراً كانت الملكة أجود، قال: «وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المقول المصنوع نظماً ونثراً» والدعوة إلى حفظ كلام العرب قديمة، ودليل ذلك ما جاء في كتاب «طبقات النحويين واللغويين»، حيث قال الزبيدي: «ولم تزل الأئمة من الصحابة والراشدين... يحضون على تعلم العربية وحفظها والرعاية لمعانيها...»

ونبّه ابن خلدون مرة أخرى إلى أنّ على قدر المحفوظ كماً وكيفاً تأتي الملكة، وبيّن الفرق بين ملكة من يحفظ أشعار العرب الإسلاميين المتقدمين وبين من يحفظ أشعار المتأخرين منهم، إذ قال: «وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته من جنسه وكثرته من قلته، تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ...» وقد اعترف ابن خلدون نفسه بأنه كان يجد صعوبة في نظم الشعر، بسبب كثرة محفوظه من الأشعار العلمية في النحو والفقه والمنطق.

إنّ الحفظ في التراث التربوي العربي مسألة ضرورية، لِمَا لها من فوائد في تعلم اللسان العربي، وفي تعلم الأخلاق والشيم العربية، فقد أورد نايف معروف نصاً لابن سينا «ينصحنا ويحضنا على تلقين أطفالنا آيات القرآن الكريم وأبيات الشعر التي تحث على الفضائل وتنهى عن الرذائل». لكن هل الحفظ وحده كاف لاكتساب ملكة اللغة العربية؟

ب/ الفهـــم:

إن الحفظ وحده لا يكفي لامتلاك اللغة العربية، بل لا بد من أمر مهم، هو الفهم، إذ الفهم هو الذي يمكّن الحافظَ من استثمار محفوظه؛ إذ لا يمكن أن يتصرف المتكلم في محفوظه إذا لم يفهمه، قال ابن خلدون: «... ثم يتصرّف بعد ذلك في التعبير عمّا في ضميره على حسب عباراتهم، وتأليف كلماتهم، وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم؛ فتحصل له هذه الملكة بالحفظ والاستعمال»

إنّ الفهم أساس بالنسبة لابن خلدون في حصول الملكة اللغوية، وقد تحدّث عن أهميته في موطن آخر، ورأى أن القصور اللغوي عند أهل المغرب وإفريقيا ناتج عن اقتصارهم على حفظ القرآن الكريم دون سواه من كلام العرب الفصيح.

ج الاستعمال:

هناك أمر ثالث لا بد منه لاكتساب ملكة اللغة العربية الفصحى، وهو الاستعمال، ومعناه أن يستخدم المتعلم ما حفظ وفهم في أساليبه، ومن طبيعة الحال ليس المقصود هنا أن يستظهر ما حفظ، بل أن ينسج كلاماً على منوال ما حفظ وما فهم، وعبر ابن خلدون عن هذا المعنى باستعمال فعل «تصرّف»، حيث قال: «... ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم، وتأليف كلماتهم، وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم، فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال». إن الحفظ والفهم غير كافيين لحصول الملكة اللغوية، فالمتعلم الذي لا يستعمل ما حفظ وفهم لا يملك ملكة اللغة العربية الفصحى، وعلى هذا، فملكة اللغة العربية لا تحصل إلا بهذه الأمور الثلاثة مجتمعة، ويبقى الاستعمال أهم هذه الأمور.

وقد تنبّه ابن خلدون إلى أهمية الاستعمال فجعله حداً فاصلاً بين مصطلحين، هما صناعة اللغة العربية وملكة اللغة العربية، فمعنى صناعة العربية أن يمتلك المتعلم قوانين اللغة من إعراب ونحوه، وأن يحفظ كلام العرب، لكن دون تطبيق ذلك في كلامه هو، فهذه لا تسمى عنده ملكة، بل صناعة، وحين يستعمل المتعلم المحفوظ والمفهوم، فهو عندئذ يملك الملكة اللغوية، وقد أجاد ابن خلدون في شرح الفرق بين الصناعة والملكة بالتمثيل بمثال حسي، إذ اعتبر من لا يستعمل اللغة وهو يعرف قوانينها كمن يعرف قوانين الخياطة والنجارة معرفة نظرية فيصف ما ينبغي القيام به في الصناعتين، لكن إذا طُولِبَ بأن يطبق معرفته النظرية عجز.

ولم يتحرج ابن خلدون في اتهام بعض جهابذة النحاة بقصورهم في التعبير، فقد جعلهم مثالاً مقابلاً لمثال الخياط أو النجار الذي يملك الصناعة ولا يملك الملكة، قال: «وكذلك تجد كثيراً من جهابذة النحاة... إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه... أخطأ فيها الصواب وأكثر من اللحن».

إنّ هذا القول ثقيل، على النحاة خاصة، ولا شك أنّ القصد منه إظهار مدى أهمية الاستعمال في اكتساب اللغة، هكذا أثبت أن ملكة اللغة العربية ليست هي صناعة العربية، حيث قال: «ومن هنا يعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية».

ويعود ابن خلدون ليشير إلى أمر الاستعمال الذي كان غائباً عند المغاربة، خاصة في تعليمهم، إذ أشار إلى أنّ التعليم لم يكن يدرّب أو يسمح للمتعلم على التمرن باستعمال اللسان العربي.

وقد ذمّ ابن خلدون طريقة التلقين والتحفيظ التي لا تسمح أو لا تدرّب المتعلم على الحديث والمناظرة، أي على استعمال اللسان، حيث قال في موطن آخر من المقدمة: «... فتجد طالب العلم منهم... سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة»].

ونتيجة هذا الأسلوب التعليمي هي: «فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم».

– إنّ ابن خلدون كان واعياً بأن لا قيمة لحفظ لا يتصرف صاحبه فيه بالاستعمال، فالحفظ ما هو إلا وسيلة لغاية، وهي استعمال اللغة على منوال المحفوظ، هكذا فإن «الملكات اللسانية كلها تكتسب بالصناعة والارتياض».